قابلت عزيز المصري... بـ "كلمة سر" من حسن البنا!

حذرتني إدارة الجيش والمخابرات العسكرية من اتصالي بالشيخ حسن البنا. وعلى الـرغم ن هذا التحذير، صممت على قبول دعوة الشيخ البنا، وحضور درس الثلاثاء في مقـر جماعـة الأخوان المسلمين بالحلمية الجديدة.

وكنت أشعر بمن يراقبني، ويترصد خطواتي، ويسجل لقاءاتي الأسبوعية مع الشيخ البنا. ولـم أهتم بهذا كله. فقد كنت أريد أن أعرف الحقيقة التي انتهزت أول لقاء لي مع المرشـد العـام للأخوان المسلمين وسألته عنها قائلا:

لقد منعوني من الاتصال بك يا شيخ حسن. ولا أعرف السبب.. ولا أعرف مـاذا تفعـل، ولا ماذا تدبر غير الإرشاد والوعظ الديني! قل لي يا شيخ حسن.. ما هي حقيقتك بالضبط؟

قابلت عزيز المصري... بـ "كلمة سر" من حسن البنا!

انزعجت رياسة الجيش، وارتبكت المخابرات العسكرية، ولا لشيء ألا لأنني دعـوت الشـيخ حسن البنا لزيارتي في معسكر سلاح الإشارة، وألقاء خطبة دينية للجنود، بمناسبة ليلة مولـد النبي صلى الله عليه وسلم!

فبعد لحظات من وصول الشيخ حسن البنا إلى المعسكر، كان خبر وصوله قد بلـغ أذان إدارة المخابرات، التي نقلتها بالتالي إلى رياسة الجيش. وعلى الفور صـدرت التعليمـات لضـابط عظيم المنطقة بالتوجه إلى معسكر سلاح الإشارة والتحقيق في واقعة الزيارة، ومع الذي سمح بها.

وجاء الضابط العظيم لمقابلتي، وبعد مرور ساعة أو ساعة ونصف فقط من خـروج الشـيخ حسن البنا من المعسكر. كان الضابط لطيفا، وفهم على الفور أن لا علم لي بحقيقة الشيخ البنا.

وأن كل ما في الأمر هو حرص على إتاحة الفرصة للجنود لسماع درس ديني، فـي مناسـبة دينية.

ولم يحاول الضابط أن يحدثني عن الشيخ البنا. وكل ما قاله هو أنه نصحني بعدم دعوته إلـى المعسكر مرة أخرى. كما طلب مني الامتناع عن مقابلته في أي مكان!

ودفعني هذا الغموض دفعا إلى تلبية دعوة الشيخ حسن البنا، للذهاب إلى مقر جماعة الأخوان المسلمين في الحلمية الجديدة، لسماع درس الثلاثاء من كل أسبوع.

وكانت هذه هي أول مرة أزور فيها الأخوان في مقرهم القديم، وقبل انتقالهم إلى المقر الجديد في نفس منطقة الحلمية. وأحسن الشيخ البنا استقبالي، ورحب بي، وقدمني لمن كـان يجلـس معه.

وكانت المفاجأة بالنسبة لي، والتي لم أستسغها أبدا، هي أقدام الأخوان على تقبيل يد الشيخ البنا بعد مصافحته، وكان الشيخ يعطيهم يده، ويتركها لهم يقبلونها بكل بساطة ولا يحاول سحبها.

لم أستسغ هذا التصرف أبدا. حقيقة أنني تعودت على تقبيل يد والدي، منذ نشأتي وحتى أخـر يوم في حياته، ولكن هناك فرق بين بين أن تقبل يد والدك، ويد شـخص آخـر مهمـا كـان احترامك وتقديرك له.

وبعد أن أدينا صلاة المغرب. أخذني الشيخ حسن البنا إلى مكتبه الخاص. وهناك جلس يحدثني في موضوعات شتى، إلى أن بدأ حديثه عن القوات المسلحة، وسـألني علـن زملائـي مـن الضباط الذين يفكرون مثلي في مشاكل بلادهم، وفي أزماتها، وفي كيفية إيجاد الحلول لها

أعترف بأنني أحببت الرجل. وأعجبت به كثيرا أعجبت بأسلوبه في الحوار. فهـو لا يفـرض رأيه أبدا على المستمع له. وإذا أحس أنك لا توافقه على وجهة نظر معينة، فتجـده لا يصـر على إقناعك بها ، وإنما يسكت عنها وينتقل إلى حديث آخر.

سألني الشيخ حسن البنا:

- لقد أسعدني كل ما سمعته عنك، وعن أفكارك، وعن جرأتك في تناول القضايا الهامة. فهل هناك الكثير من أمثالك في القوات المسلحة
- وهل تتصل بهم، وتتناقض معهم؟
- فقلت له:

نعم.. فلست وحدي الذي يهتم بمشاكل بلاده. حقيقة أننا لم نتعارف جميعـا ولكننـي بـدأت التحرك بالفعل، لترتيب هذه اللقاءات.

وبالمناسبة... لقد انزعجت رياسة الجيش بسبب الزيارة التي قمت بها لمعسكرنا.. وجاء مـن يحذرني من تكرار تلك الزيارة. ونصحني بعدم مقابلتك. وأنا لا أعرف سبب لهذا كله. فهـل تعرفه أنت؟

ورد الشيخ البنا بكلمات كثيرة، حاول فيها ألا يكشف عما لا يريد الكشف عنه. واهتم بالحديث عن دعوته الدينية، وكيف أن الإسلام دين ودنيا، وأن واجب على كل مواطن مسلم أن يهـتم بمشاكل بلاده، وهداية الناس، ومساعدتهم على الخلاص من متاعبهم.

ورأيت أن أكون أكثر وضوحا معه فقالت له:

- بصراحة.. لدينا تصور – في القوات المسلحة- لحركة الضباط الأحرار. وهذه الحركـة وضعت تنظيما سريا لها. وهذا التنظيم يهدف أصلا إلى القيام بثورة تحقق للشعب أمالـه وأحلامه.

- ولمعت عينا الشيخ حسن البنا، وظهر على وجهه الاهتمام الشديد بكلامي، فرد عليه قائلا:

- هذا عمل طيب، نشجعكم على المضي فيه، كما يسعدنا أن نضم جهودنا إلـى جهـودكم، ونعمل معا من أجل شعبنا، وديننا، وبلادنا.

- وقلت بسرعة:

- ونحن أيضا نرحب بهذا.

وعاد الشيخ البنا إلى أسلوبه الحذر في الحديث، وبدأ يسأل عن عدد الضباط الأحرار، وعـن لقاءاتنا، وتصورنا لكيفية التحرك، وجمع الزملاء وإقناعهم بما نعد له.

وكعادتي في أن أعمل في وضوح، رأيت أن أضع النقاط فوق الحروف فقلت:

- أننا نضع أيدينا في يد كل من يريد أن يشاركنا في تحقيق هدفنا. ولكن المهـم أن نوضـح موقفنا فأقول لك أننا لا نعمل حساب أي جماعة ، أو أي تنظيم. نحن نتحرك من أجل مصـر فقط. ونعمل لحسابها وحدها، فمن غير المعقول أن يعمل الجيش لحساب حزب من الأحـزاب السياسية.

خاصة أننا لا نوافق أبدا على ما تفعله هذه الأحزاب. فمن رأينا أنها تعمل من أجل الوصول إلى الحكم فقط، وهذا لا يتفق أبدا مع الذين يعملون من أجل مصر.

وفهم الشيخ البنا ما أقصده بسرعة. وعلى الفور وافقني على رأي، وفهم أنني اختلف معه في كيفية العمل المشترك بين جماعته، وبين حركة الضباط الأحرار.

وانتهت الجلسة الأولى بيني وبين الشيخ البنا في مقر جماعة الأخوان المسلمين . ثم تكـررت هذه الزيارات مرات، ومرات..

وبعد فترة لاحظت شيئا جديدا، دبره الشيخ البنا ليظهر أمامي كشيء عادي وبـلا ترتيـب مسبق. فبعد تأدية صلاة المغرب، وانتقالنا إلى غرفة مكتب المرشد العام، كان يطرق البـاب علينا ويدخل منه أحد الإخوان حاملا صندوقا يضعه أمامنا، ثم ينحني ليصافح الشـيخ البنـا، ويقبل يده، وينتظر أوامره.

وينظر الشيخ البنا إلى القادم ثم يأمره قائلا

- أفتح الصندوق يا فلان.

ثم ينظر الشيخ ناحيتي قائلا :

- انظر يا أخ أنور داخل الصندوق وقل لي رأيك.

- فأنظر، فأوجد طبنجة أفحصها، ثم أعيدها إلى مكانها لأسمع من الشيخ البنا العديـد مـن الأسئلة عن رأيي في نوع الطبنجة وفعاليتها، ونوع الذخيرة المناسب لها، وهل أوافق على شرائها أو اقترح عليه شراء غيرها.؟

وكنت أجيب عن أسئلته، وأقول رأيي في السلاح، وكان الشيخ حسن البنا يأخذ بـرأي بـلا تردد. فإذا وصفت السلاح بالجودة، أمر بشرائه على الفور. وإذا نصحت بعدم الشراء، أمرمن أحضره بإعادته إلى صاحبه، والبحث عن آخر أحدد نوعه وطرازه بنفسي.

- وفهمت من هذا أن جماعة الإخوان المسلمين تشتري أسـلحة ، وتخفيهـا ، وتنـوي أن تستخدمها يوما ما. ولم أبد أي اعتراض على ذلك. وفهمت من الشـيخ حسـن البنـا أن جماعته تستعد هي الأخرى للقيام بالثورة. وكنا نشجع أي مواطن يعمل في نفس اتجاهنـا، وهو القيام بثورة. لم نتدخل في أسلوبهم. ولم نكن نسمح لهم بالتدخل في أسلوبنا فحركـة الضباط الأحرار لا تعمل- كما قلت- لحساب حزب، أو جماعة. وإنمـا تعمـل لحسـاب مصر فقط.

وتكررت لقاءاتي مع الشيخ البنا ،وأصبحت بمعدل مرة كل أسبوع تقريبا حقيقة أنني لم أطلب التحذير الذي تلقتيه من الضابط العظيم المسئول عن منطقتي، ولكنني لم أنقطع عـن الـذهاب مساء كل يوم ثلاثاء- تقريبا- إلى مقر جماعة الأخوان المسلمين، لمقابلة الشيخ حسن البنا.

وكانت رياسة الجيش، والمخابرات العسكرية، على علم بتلك اللقاءات شبه المنتظمة.

وكنت أشعر بمن يراقبني، ويتتبع تحركاتي وعلى الرغم من ذلك لم أخف،ـ ولم أمتنـع عـن الذهاب إلى الإخوان المسلمين ومجالسة مرشدهم العام.

وبدأ الشيخ البنا يعرفني على أعوانه وزواره. وكان يقدم لي كل واحد باسمه، وبمعلومات عنه، وبالدور الذي يقوم به في الجماعة.

وذات يوم فوجئت بالشيخ حسن البنا يسألني:

ما رأيك في عزيز المصري ؟ فقلت له:

- رجل عظيم بكل ما في هذا الوصف من معنى.

لقد أعجبت به قبل أن أراه. ورأيته مرة واحدة، عندما زار معسكرنا في منقباد، ولم أتمكـن من الحديث معه. لقد تمنيت أن أقابله، ومازلتن انتظر تحقيق هذه الأمنية.

وابتسم الشيخ حسن وقال:

- سأحقق لك هذه الأمنية. وسأجعلك تقابله، وتقول له كل ما تريد . فما رأيك؟

ولم أكن أريد أكثر مما وعدني به الشيخ حسن البنا.وأحسست بسعادة كبيرة، وأنا أستمع منـه ترتيبات مقابلتي المنتظرة مع عزيز المصري. قال لي الشيخ حسن:

- عندما تحضر إلى هنا في الأسبوع القادم، سأخبرك بموعد وبمكان اللقاء .

- وبالفعل، حدد لي الشيخ حسن البنا مكان وزمان لقائي بعزيز مصر، عنـدما عـدت فـي الأسبوع التالي، فقال لي:

- - هناك عمارة، قدام مدرسة السنية للبنات، وأنت قادم من شارع المبتديان متجهـا إلـى ميدان السيدة، وهي عمارة قديمة وتزدحم بعيادات الأطباء. ستجد بينها عيادة باسم الدكتور إبراهيم حسن. وأنت تعرفه طبعا، فقد عرفتك عليه هنا منذ فترة. فهـو وكيـل الجماعـة

ستذهب إليه في العيادة وتقول له كلمة السر، بعد أن تـدفع قيمـة الكشـف- الفيزيتـة- وسيتولى هو ترتيب مقابلتك مع عزيز المصري.

- واتفقنا على اليوم، والساعة، لذهابي إلى عيادة الدكتور إبراهيم حسن. وفي طريقـي إلـى هناك تذكرت مقابلتي الأولى مع الدكتور إبراهيم حسن. فقد لاحظت ولا حظ معي بـاقي زوار المرشد العام أنه يظهر اهتماما كبيرا بحضوري. كما كان يحرص على أن يقـدمني إلى كبار مساعديه، مثل الدكتور إبراهيم، وعبد الحكيم عابدين – قريبة وسـكرتير عـام الجماعة – ووكيلها الثاني الذي لا أتذكر اسمه اليوم، وإن كنت أتذكر أنه كان يعمل مدرسا إلزاميا وآخرين غيرهم . وكانوا جميعا في غاية الاستغراب، من اهتمام مرشـدهم العـام بهذا الشاب الصغير الذي كان عمره في ذلك الوقت لا يزيد على الواحد والعشـرين مـن عمره! ولم يكن أحد منهم يعرف عني أكثر من اسمى فقط . أو هكذا تصورت. وبالـذات نتيجة لعلامات الاستفهام العريضة التي كانت تبدو واضحة على وجهوهم في كـل مـرة أظهر فيها في مكتب المرشد العام، وأجد منه الترحيب الشديد، والمعتاد!

- ووصلت إلى العمارة القديمة التي حددها لي المرشد العام .. وصعدت السلم حتى العيـادة ودخلت، ودفعت قيمة الكشف الطبي، وانتظرت دوري لأدخل إلى غرفة الكشف. وهنـاك وجدت الدكتور إبراهيم حسن، الذي انتظر أن يسمع مني كلمة السر التي حددها لي الشيخ حسن البنا، وعلى الفور قام الدكتور إبراهيم، وفتح بابا داخليا قادنا إلى غرفة أخرى يجلس فيها الفريق عزيز المصري.

- وكانت هذه المقابلة بمثابة منحنى طريق في حياتي. بـل لا أغـالي إذا قلـت أن حيـاتي انقسمت إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل لقائي بعزيز المصري، ومرحلة ما بعد لقائي به، في المرحلة الأولى كنت أبحث عن طريقي، كنت أبحث عن البداية التي انطلق منهـا نحـو هدفي. كانت أعماقى تمتلئ بالحماس، والثورة، والغضب، والاندفاع.

ولم أكن أعرف كيف أحول هذا كله إلى طاقة تدفعني إلى الأمام. فكل ما كـان حـولي كـان يقودني إلى اليأس، والمزيد من اليأس. وبالذات خلال الفترة التي أقمت فيها في معسكر منفـى العباد الذي كانوا يطلقون عليه اسم منقباد. وعندما نقلت إلى سلاح الإشارة بالقاهرة. تصورت أنني سأجد الفرصة للانطلاق. ولكنه كان انطلاقا بطيئا، وغير مشجع. فكنت أتحسس طريقي، وابحث في هدوء وفي تمهل شديد، عن العناصر الصالحة من الضباط الذين قـد يشـاركونني أحلامى، وأفكاري. ولم يكن سهلا العثور على هؤلاء الضباط، على الرغم من ثقتي الكاملـة

في وجودهم، وبكثرة . فالمشكلة كانت في كيفية العثور عليهم، وكيفية الاتصال بهم، وكيفيـة مفاتحتهم في الأمر.

وانتهت هذه المرحلة بعد مقابلتي مع عزيز المصري في عيادة الدكتور إبراهيم حسن . كـان الرجل في انتظاري، بعد توصية من الشيخ حسن البنا.. وافق عزيز المصري بتاريخه القـديم والعريق – على أن يلتقي سرا بضابط شاب في بداية عمره، ولا يعرفه أحد. و اعتبرت هذا التصرف من عزيز المصري دليلا على عظمة هذا الرجل وعلى وطنيته وعلى حبه للغيـر، بلا حدود.

فلم يكن الرجل عاديا، في شخصه أوفي تاريخ، لقد تخرج فـي المدرسـة الحربيـة بمدينـة استانبول- بتركيا- وزامل مصطفى كمال أتاتورك، وحارب في البلقان، ثم انضم إلى جماعـة الاتحاد والترقي بهدف إنقاذ الأمة العربية كلها من الاحتلال التركي. رجل هذا شأنه، لم يكـن معروفا على المستوى المصري فحسب، وإنما عرف على المستوى العربي كله، كرجل ينادي بتحرير الدولة العربية من المحتل الأجنبي.

هذا الرجل، بكل عظمته وبكل شهرته، لم يعترض عندما رجاه الشيخ حسن البنـا أن يحقـق لضابط صغير السن، أمنية في أن يلتقي به.

ومددت له يدي مصافحا، وشاكرا سماحته، وموافقته على إضاعة وقته معي . وعلى الفـور سألني عزيز المصري:

- لماذا طلبت مقابلتي؟

- وبدأت حديثي مقدما له نفسي قائلا:

- أنني ضابط في الجيش... و...

- فقاطعني قائلا:

- أعرف أنك ضابط في الجيش، ولكن ما أريد أن أعرفه هـو لمـاذا أردت أن تقـابلني؟ ففهمت أن الرجل يريد أن أدخل في الموضوع مباشرة، وبلا مقدمات طويلة لا فائدة منها!

- فقلت له:

- لقد جئت إليك طامعا في أن ترشدني إلى الطريق الذي أسلكه أنا وزملائي الضـباط مـن اجل إنقاذ بلادنا... وأنت صاحب تاريخ طويل في الكفاح والوطنية... ومن المؤكد أن لديك التصور الصحيح لما يجب علينا أن نفعله.

- ونظر إلى عزيز المصري نظرة طويلة ثم فاجأني بقوله:

- والله أنا خائف أن تطلع أنت أيضا مثل الذين سبقوك! فما أكثر الضباط الذين اتصلوا بـي من قبل، وطلبوا مني إرشادهم مثلك إلى طريق الثورة، ثم خرجوا من بيتي ليبلغوا رياسة الجيش والمخابرات عني! ولا أعرف إذا كنت أنت أيضا من هؤلاء الذين حاولوا الإسـاءة إلى، وأتضح أنهم أساءوا إلى أنفسهم وإلى وطنيتهم أولا.

- فدافعت عن نفسي، وقلت له أنني فعلت كل ما فعلته من قبل من أجل أن التقى به، ومـن المؤكد أن الشيخ حسن البنا أخبره عن حقيقتي. فلو كان لدى الشيخ البنـا أي شـك فـي شخصي، لما جاء لمقابلتي في المعسكر، ثم دعاني لزيارته كل يوم ثلاثاء، ثم عرض علي أن يرتب لي مقابلة مع الفريق عزيز المصري فـي عيـادة وكيلـة جماعـة الأخـوان. المسلمين! وقلت لعزيز المصري:

- أنني جئت طالبا النصيحة، والارشاد، وفي نفس الوقت جئت لأعـرض عليـك- باسـم زملائي وباسمي- أن تتولى رياسة تنظيمنا السري، وتوجهنا إلى الطريق الذي تحدده لنا، فسألني عزيز المصري:

- من أنتم؟

- فقلت ضابط جيش يمثلون جميع الأسلحة اجتمعوا، واتفقوا على العمل بهدف إنقاذ مصـر من المحتل الإنجليزي، ومن حكم الملك والأحزاب الفاسدة.

- وعندما نطقت بكلمة(الملك)، علق عزيز المصري عليها قائلا:

- الولد ده مش تمام أبدا.

ثم أعاد الحديث عن تجربته عندما سافر إلى لندن ليكون مشرفا على ولي العهد فـاروق مـع أحمد باشا حسنين... وكيف أنه كان صارما مع فاروق، في حين أن أحمد حسنين كان متساهلا معه، طمعا في كسب صداقته.. مما أغضب فاروق وأرسل إلى والده الملك فؤاد يشـكو مـن

قسوة عزيز المصري عليه، فاضطر فؤاد إلى أن يسحب عزيز المصري ويعيده إلى القاهرة، فأطلق فاروق العنان لنفسه، في اللهو واللعب، وإهمال دروسه.

وبعد أن انتهى عزيز المصري من قصته مع فاروق، وجدته يعود إلى حديثنا الأصلي ويقـول لي:

- حقيقة يا أنور أنا لا أملك نصيحة أقدمها لكم. وكل ما أستطيع أن أقوله هـو أن أطـالبكم بتثقيف أنفسكم عن طريق القراءة، والاطلاع المستمر. كما أنصحكم بأن تحرصوا علـى سرية تنظيمكم، وتضعوا الضمانات الكافية لمنع سقوكم. وهذا يتطلـب سلسـلة تنظيميـة سليمة، وتعمل كل خلية على حدة. بحيث إذا انكشفت خلية من الخلايا، فلا ينكشـف أمـر التنظيم كله فتسقطوا جميعا. أن التجربة علمتني أن أكون حريصا كل الحرص . فما أكثر أصحاب النفوس الضعيفة، وما أقوى الإغراءات التي يتهاون أمام بريقها الضعفاء. أما عن اقتراحك بأن أتولى رياسة تنظيمكم، فأنني اعتذر عن قبول هذا العرض، ليس خوفا، وإنما لأنه لا مكان لي داخل هذا التنظيم. فهو تنظيمكم أنتم وحدكم، انتم الذين فكرتم في تشكيله. وأنتم الذين جمعتم عناصره، وانتم الذين عليكم التحرك به وفقا لمخططكم.

- وسكت عزيز المصري قليلا ثم قال:

- إن نابليون أصبح جنرالا وهو في سن السابعة والعشرين من عمره. فكم عمرك الآن؟

- فأجبت:

- ٢١ سنة

- فقال:

- أي أمامك ست سنوات لتبلغ السابعة والعشرين وتصبح مثل نابليون... مسئولا عن ثورة، وعن شعب.. أنني لا أخاطبك وحدك بهذا الكلام، وإنما أقوله لتنقله لبـاقي زملائـك فـي التنظيم. لا تتركوا أموركم لغيركم، مهما كان الشخص . فالمسئولية- كما قلت لك- هـي مسئوليتكم وحدكم.

واقتنعت بما قاله لي عزيز المصري..

وأكدت له أننا سنعمل بنصيحته .. وسنعتمد على أنفسنا فقط... فالقرار قرارنا، والفكرة فكرتنا، ونحن وحدنا الذين سنحدد خطوات تنفيذها.

وشكرت عزيز المصري على حسن استقباله لي، وطمأنته على إيماننا، وثقتنا، في أنفسنا وفي قدراتنا.

وارتاح عزيز المصري... لما أكدت له... وطلب مني أن التقي به في كل مرة أشـعر فيهـا برغبة في التحدث إليه.

وفعلا تكررت زياراتي لعزيز المصري ، وكان الرجل يمتلك منزلا كبيرا، محاطـا بحديقـة فسيحة في منطقة عين شمس. ولكنه لم يكن يقيم في هذا البيت. وفضل عليه غرفة في بنسيون صغير في شارع الانتيخانة- بوسط القاهرة- اسمه بنسيون فيينواز . وكنت التقي معه دائمـا في هذا البنسيون الصغير . وكنا نتحدث طويلا في أمور شتى، وكان يسألني عن أحوالى دون أن يتدخل في التفاصيل.

وفي نهاية كل لقائي مع عزيز المصري، كنت ازداد حماسة، وإصرار، ورغبة في تحقيق مـا كنت وزملائي من الضباط الأحرار نحلم به، ونتطلع إليه. كان الرجل يمـلأ قلبـي، بحديثـه ونصائحه، بالأمل في ظهور الفجر الجديد .

وبدأت أوسع في دائرة اتصالاتي بالضباط... وهذا حديث الأسبوع القادم بإذن الله.

www.anwarsadat.org